السنة الثلاثون تموز ١٩٣٢

الفرنسويون في سورية

في القرنين السادس والسابع للمسيح

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

كان كثير من زوّار الشرق ، اذا رجعوا الى بلادهم ، رتّبوا معلوماتهم وألّفوا ، كما يؤلف سيّاحنا العصريون ، كتباً عن رحلاتهم . غير ان اولئك الزوّار يفضلون معاصرينا بانهم كانوا يقيمون الشهور الطويلة بل السنين احياناً في انحاء الشرق . فلا يخترقون البلاد سريعاً بالقطار او بالسيارة ، بل يسيرون على مهلهم فيتفقدون جميع المناطق ويقفون كلما حسن لديهم الوقوف . اما اليوم فالسيّاح والزوّار مأخوذون بعامل العجلة ولا وقت لديهم لدرس ما يشاهدون . حتى ان الشرق يتأثر من هذه السرعة اذ يرى بها عدم اكتراث لما يقدّم لهم من اساليب الضيافة وحسن الاستقبال ، فيُعرض عنهم ويخفي عليهم اسراره . فيرجعون واذا

جهم لم يدركوا شيئاً من جوهر البلاد الشرقية . لا يظهر الشرق اسراره الا نادراً ، ولا يختص بها الا من اقام فيه طويلاً ، وتدرّع بالصبر والجلد على سماع المواعظ المسهبة والخطب الطويلة التي يتداولها حكماء الشرق فلا يملّون ، حتى كأنهم اصحاب ايوب ذوو البديهة الفياضة والكلام المتدفق . وان انسَ لا انسَ العدد العديد من السيكارات التي دخنتها وفناجين القهوة التي احتسيتها ، وانا اسمع احاديث مشايخ النصيرية ، وامراء الاسماعيليين ، ورعاة اليزيديين ، مضيفي بالامس ، فاعير اذناً صاغية لاقوالهم المسهبة ، ومراجعاتهم المديدة ، وقصدي ان انفذ من خلال هذه المحادثات الى معتقداتهم السرية . ولكن يا للعجب ! اية مهارة ، واي لطف ، بل اية سياسة فطرية كانت تهيب بهؤلاء القوم فيتملّصون من اسئلتي الدقيقة ، ويحوّلون مجرى المجاني ، دون ان يمسّوا في شيء آداب الضيافة الشرقية . حقاً انهم لمن اقدر الناس واشدّهم دهاء ومرونة . انهم لا يجيبونك الى شيء مما تطلب ، وهم مع ذلك لا يحيدون قيد شعرة عن قواعد التهذيب الدقيق .

لدينا كثير من تلك الرحلات اللاتينية القديمة ، وهي ذات قيمة لا تعادل في ما خصّ علم الآثار القديمة والجغرافية ودرس اخلاق الشعب . على اننا نكتفي بذكر السائحة سيلفية ، او اتيرية ، كما يسميها البعض ، وهي غالية من منطقة اكيتانية سافرت في اواخر القرن الرابع ، وبذكر الاسقف اركولف الذي زار الشرق في اوائل الفتح العربي .

اما رحلة سيلفية فقد اكتُشفت من مدة قريبة ، فاحدثت تأثيراً عجيباً في العالم العلمي ، لما اختصّت به تلك المعلومات من الطرافة والاستقلال . فان السائحة لم تنقل شيئاً عن القديس ايرونيموس ولا عن المؤرخ يوسيفوس . بل لم تحمل معها الى الشرق الا الكتاب المقدس . وان سفر هذه المرأة ليدلّ على انتشار الرغبة في زيارة بلادنا اذ ذاك .

كانت سيلفية من نساء الاشراف كما يظهر من الحفاوة التي لاقتها في بلاد الشرق ومن اهتمام ارباب السلطتين الدينية والعسكرية بتسهيل مهمتها . فامكنها ان تقف على الكثير من المعلومات . وقد وصفت كل ما شاهدته في سورية

وفلسطين من مظهر المعابد وحالتها الى هيئة الاحتفالات الطقسية التي كانت تُقام بها ، بدقة ووضعية بالغتين ، دون اهتمام بالتحسين اللفظي او التأثير البياني. وكانت ، قبل ان سافرت ، قد احكمت الكتاب المقدّس ، فاصبح همّها الاكبر ان تفحص كل شيء فحصاً عيانياً . حتى انها عندما تذكر شيئاً لم تره بنفسها ، تريد قائلةً : « هذا ما أخبرت به . »

وهي تقرأ كتابها في الاماكن التي تزورها ، وتناظر ادلّاءها — وهم ارشيمندريتو المنطقة - في المقاطع الموافقة من التوراة ، وتبدي آراء تنمّ عن روح جغرافي وعن فهم لموقع الآثار لا يفرق في شيء عمّا نراه عند علماء العصر. وهو يفرق الفرق كلّه عمّا نتحققه في عقلية لامرتين ، اثناء زيارته لفلسطين ، اذ كان يتعرّف الى الاماكن المقدسة بفضل بديهته وشعوره الفطري . . . فقال : « لا اذكر اني صادفت مكاناً الا خلت ان رؤيته الاولى تقوم مقام الذكرى في ذهني . . . »[1] وهو مبدأ شديد الخطر في علم تحقق الاماكن.

كانت سيلفية قوية الايمان ولكنها لم تكن سريعة التصديق . يظهر ذلك في ملاحظاتها الدقيقة ، ومنها ما خصّ عمود الملح الذي تحوّلت اليه امرأة لوط. فان هذا العمود يشغل افكار السيّاح والزوّار كلهم . اما سيلفية فتصرّح ، دون تردّد ، انه غير موجود . ثم هي تصعد بنفسها جبل سينا ، فتزور كل اديرته . ثم تتابع رحلتها نحو بلاد العجم حتى اقصى حدود السلطة الرومانية ، ناشرة الطمأنينة والسلام . وبينا تقطع الفرات تتذكر بلادها ، فتشبه ذاك النهر ، في ضجته الصاخبة ، بنهر الرون ، ولكنها تريد ان النهر السوري - العراقي اعظم من نهرها.

كتبت سيلفية ومن تبعها من الرحّالة بلغة لاتينية منحطّة تبشّر بما حدث بعد ذلك من تفكك اللاتينية وانفصال اللهجات الرومانية المختلفة . على ان ملاحظاتها الدقيقة وتعابيرها الساذجة كانت جزيلة النفع في شرح مشكل من اهم المشاكل الشرقية ، وهو ماضي سورية وما يتعلق بآثارها القديمة.

ولم يكن فضل الاسقف اركولف ليقلّ عن فضل سيلفية في ذلك . فاننا

(١) *Voyage en Orient*, 23 oct. 1932

بواسطته نعرف تاريخ اثرين سوريين عظيمين كثيراً ما نسبها الناس الى العرب ، وهما الجامع الاقصى في اورشليم ، والجامع الاموي في دمشق . اما الجامع الاقصى فقد تأكدنا ان لا صلة بينه وبين الخليفة عمر . واما جامع دمشق فاتضح انه لم يُقسم قط بين المسلمين والنصارى ، كما اعتاد ان يقول بعض المؤرخين مأخوذين برواية ابن عساكر . فهو ليس الا كنيسة القديس يوحنا القديمة أخذت من النصارى ، على عهد الوليد الاول ، وحوّلت الى جامع .

ومما اتصف به زوّارنا الملاحظة الدقيقة والاكتفاء بجملة واحدة ، بل بكلمة احياناً ، في وصف مدينة بكاملها او شعب باسره . وها انني اختار فصلاً من كتاب الرحالة البليزني (l'Anonyme de Plaisance) يصف فيه منطقة تهمّنا جداً ، وهي منطقة فينيقية الساحلية ، وقد زارها الكاتب في النصف الثاني من القرن السادس ، فهاله ما شاهده فيها من سرعة العمل وسهولة النهوض على اثر الزلازل العظيمة التي توالت عليها . وكان قد ارسى في طرطوس ، تجاه جزيرة ارواد ، فقال :

« سرنا من انتارادوس (طرطوس) الى طرابلس ، وهي مدينة خربة بسبب الزلازل التي حصلت على عهد الامبراطور يوستنيانوس . ومنها انتقلنا الى تريبوليس (انفه) فالى بيبلوس ، وهما ايضاً تقوّضتا على سكانها ثم وصلنا الى بيريت (بيروت) « المدينة الفائقة الجمال » التي ازدهرت فيها مؤخراً الدروس العلمية . وهي ايضاً كان الزلزال قد اخربها . وقد اكد لنا اسقف المكان ان قد هلك فيها اكثر من ٣٠ الف شخص يعرفهم باسمائهم ، فضلاً عن الاجانب . ومن بيروت سرنا الى صيدا ، وهي خربة ايضاً ، وسكانها جدّ اردياء . من صيدا انتقلنا الى سارپتا (صرفند) وهي مدينة صغيرة ولكنها مسيحية جداً . ومن سارپتا الى صور . وفي هذه المدينة رجال اغنياء ، على ان المحيط الاخلاقي منحطّ فيها الى اقصى ما يمكن تصوّره . وفيها كثير من المعامل العمومية[1] لصناعة الحرير والمنسوجات المختلفة . من صور سافرنا الى پتوليايس (عكا) وهي مدينة صالحة فيها كثير من الاديرة الممتازة . »

١) اي الرسمية المختصة بالحكومة

أوَ ليس لذيذًا توزيع هذه الشهادات الإخلاقيـة ؟ بقي ان نصرف الى اي حدّ يمكن ان نعتبر هذه الاحكام مترفعة عن التحامل ، واية ظروف دفعت اليها .

منذ القرن الرابع كان الفيلسوف جونيوس قد اظهر لنا سكان فنيقية في سمة من العيش واندفاع الى الملاهي . وها اننا نراهم بعد قرنين ، وقد زادت مواردهم بسبب الصنـاعة الحريرية الحـديثة في بلادهم ، يزدحمون في مدنهم التجارية الغنية ، فلا يصرفون الا الوقت الكافي لترميم منازلهم المخرّبة بالزلزال ولدفن موتاهم المديدين ، ثم يعودون الى ما إعتادوه من حياة الترف واللهو . وهناك ملاحظة اخرى في ما خصّ الصفة التي يضيفها السائح البايزنسي الى بيروت قائلًا « انها مدينة فائقة الجمال » تدفعنا الى السؤال : ألم تؤثر هذه الصفة في من اتى بعده وتكلم عن بيروت ؟ هذا وان السائح المذكور لا يعطي غير مدينتنا تلك الصفة . حتى ان الاسكندرية لا تتجاوز في نظره نعت « الجميلة » .

في القرن الثالث عشر كتب جان دي ويرزبورغ (Wirzburg) الالماني عن بيروت فسمّاها « الوافرة الغنى » ، دون ان يطلع على ما كتبه السائح الاول . وكذلك فعل مواطنه جان پولوز (Poloner) في القرن الخامس عشر اذ دعا بيروت « المدينة القديمة الشريفة » وهو نعت لائق بالمدينة التي اقام تجاهها ذاك الالماني ثمانية ايام لا يتمكن من الدنوّ اليها . وذلك ان العواصف كانت قويّة وهياج البحر شديدًا ، فصرف المركب اسبوعًا بكامله في خليج مار جرجس ، عنـد مصبّ نهر بيروت ، وهو مضطرب ابدًا بين الحياة والموت .

وعندما زار لامرتين ، لاول مرة ، قمّة مار دمتري في الاشرفية المطلّة على بيروت ، وشاهد ذاك المشهد البديع المتدرّج على قدميه ، لم يتمالك ان صاح : « لم يعطِ الله الانسان ان يحلم بكل الجمال الذي صنعه . كنت احلم بمشاهدة جنة عدن ، ويمكنني القول انني شاهدتها . » وهاكم مـا يقوله ماكسيم دي كامپ (du Camp) وقد نزل بيروت في ١٩ تموز ١٨٥٠ مرافقًا فلوبير ، قال[1] : « ان كونشا دورو[2] لحسنة في بالرمة ، وان خليج نابولي لجميل ، اما بيروت فلا مثيل لها - لا المدينة نفسها ... بل البرية التي تحيقها ، غابة الصنوبر ، الطرقات التي

١) *Souvenirs Littéraires*, I, 494 ٢) اسم خليج بالرمة عاصمة صقلية

تحيط بها اغراس الصبار ، منظر البحر المتوسط ، مشهد قمم لبنان الشجراء وقد رسمت على اديم السماء خيوطها الدقيقة الواضحة. هي عزلة نافعة ورياضة روحية لمن رغبوا في التأملات ، او خدعتهم الآمال ، او جرحهم الوجود . يظهر لي ان الناس يمكنهم هناك ان يعيشوا سعداء اذا ما اكتفوا بالنظر الى الجبال والى البحر . وكم من مرة ، في ساعاتي المؤلمة ، شعرت بحلم يدفعني الى ان التجئ هناك فادخل تلك الطمأنينة التي توليها مشاهدة الطبيعة.»

على ان سياحنا الاقدمين كانوا اوفر ايجازاً من الوصاف المعاصرين ، ولم يكونوا ليقلوا عنهم تأثيراً . بل كانوا بكلمة ملوّنة او بتعبير تصويري يوردون ما أثّر فيهم المشهد الاجتماعي او المنظر الطبيعي . وقد ذكروا قبل المعاصرين ذاك « النور المشعّ الذي يتدفّق من سماء سورية.» واني ارى ان قراءة تلك النصوص القديمة لمن افضل المشجّعات . وذلك ان اولئك الكتاب المتواضعين ، حتى اننا نجهل اكثر اسمائهم ، تجرّدوا في كتاباتهم عن كل غاية . فهم لم يفكروا بقرائهم من السوريين ، ولم يرموا الى الخلود ، ولم يفتّشوا عن احداث التأثير ، بل كتبوا ما عرض لهم اذ عرفوا البلاد الشرقية . فكان العامل الوحيد اذاً ما في هذه البلاد من حيوية ظاهرة في الشعب وفي الارض.

هذه هي النتيجة التي يمكن استخراجها من انتقادات السائح اليلزني وامثاله . فانها تظهر الشعب السوري على جانب عظيم من الصبر والمرونة . فهو لا ينوء تحت النوائب مهما عظمت ، بل على العكس فانها توقظ حيويته وتدفعه الى العمل . نرى ذلك في تأثير الزلازل الهائلة المتتالية على عهد يوستنيانوس (٥٢٧–٥٦٥) والتي نزلت بسورية زمن كان السوريون يتسابعون فتحهم الاقتصادي في بلاد غالية ، فيحتلّون السوق التجارية ، ويرفعون عرش مار بطرس في رومة وكرسي اسقفية باريس[1] . فلم توهن قواهم ، ولم تثلم عزائمهم . بل كان ترف ارباب التجارة والصناعة في صور وصيداء ومظاهر ملاهيهم الفخمة تشكك زوّار الاراضي المقدسة من اتقياء الغرب.

وكان هؤلاء يأتون من مقاطعاتهم التي خربتها الاكتساحات البربرية ، فتفاجئهم

١) راجع المشرق (٢٩ [١٩٣١]: ٢٤٧ و٤٢٩)

مظاهر الرخاء المنتشرة في جميع انحاء سورية ، فيخالون انفسهم في جنة فسيحة كما كانوا يقولون (*paradisus*) . ولم يكونوا ليخصّوا هذا النعت بدمشق وحدها ، وهي جديرة به ، بل بغيرها من المناطق ايضاً حتى اليهودية وهي اقل المقاطعات خصباً وخيرات . فكانوا يشيرون في كل مكان الى النخيل الكثير ، وغابات الزيتون ، والكروم المنتشرة . ولا عجب فان الاتراك لم يكونوا قد مرّوا بعد في هذه البلاد . ثم يشير الزوّار الى غزارة الينابيع السخنة والمعدنية في وادي الاردنّ وفي ضواحي طبرية ، ذاكرين كثرة روّاد هذه الاماكن ، وما يتّصفون به من الاخلاق والعادات المعروفة لمتادي مدن المياه المشهورة.

***

على ان اكثر الزوّار كانت تجذبهم تذكارات تلك الارض المقدسة فوق ما كانت تفعل بهم مناظرها الخارجية. فكانوا يخالونها متحفاً واسعاً لا يزال يحتفظ على جميع الآثار الوارد ذكرها في الاناجيل وفي العهد العتيق ، تاركاً اياها في امكنتها الخاصة منذ عهد المسيح بل منذ عهد الآباء الاقدمين. فكانوا يرغبون في مشاهدة كل شيء . وكانت حرارة ايمانهم وقوة تقواهم تتجاوزان الحدود احياناً . حتى ان احدهم ، بينا كان يقبل خشبة الصليب المقدّس في اورشليم ، اغرز فيها انيابه فاستخرج منها قطعةً كبيرة . وكثير غيره كانوا لا يطمئنون الا اذا حملوا معهم التذكارات العديدة من النخيل ، والبلسم النابت في ازيحا ، والزيوت ، والمياه المقدّسة . وكانوا يدلّون بعضهم بعضاً على الطليقة الملتهبة في برية سيناء ؛ وعلى القاعدة التي تُنصب عليها العجل الذهبي ؛ وعلى معجن الارملة التي عجنت به للنبي الياس في صرفند ؛ وعلى اجاجين الماء المحوّل خمرًا في قانا الجليل ؛ وعلى الكتاب الذي ارسله المسيح الى الملك الابجر في الرها ؛ وفي الناصرة كانوا يطلبون مشاهدة الكتاب الابتدائي الذي تعلم فيه الطفل يسوع الحروف الابجدية ، وكذلك كانوا يرون جسرًا كان المسيح يجلس عليه . وهو جسر ثقيل « كان النصارى يرفعونه بسهولة. اما اليهود فلم يكونوا ليتمكنوا من تحريكه . »[1] وكان كل زائر لفلسطين يرجم بقبر الجبّار جليات « حتى

(١) *Itin. Hierosol.* 161

اصبح من المستحيل رؤية حجر واحد على دائرة عشرين ميلاً.» وناهيك بكثرة الحجارة في فلسطين !

وانه لمن السهل ان نعدّد هذه الاستشهادات ، ونتفكه بتقدير قيمتها . ولكن ما الفائدة ونحن لا نكتب بحثاً في التفسير ولا درساً في الآثار القديمة وسرعة التصديق بوجودها ! على ان في رحلة الزائر البليزنسي ذكر امر لا بأس بتفكيه القرّاء بالاشارة اليه . كان في ما وراء الاردن دير للراهبات . وكان في هذا الدير حمار تنقل عليه مؤونة الحبيسات ، على ان القرابة في الحيوان الذي كان يرافق الحمار ويحرسه اذ لم يكن كلباً كما هي العادة ، بل اسد كبير هائل المنظر « *terribilis ad videndum* » . وقد أُعجب به الكثيرون حتى عُرض على رفيق الزائر البليزنسي ان يشتريه « بمائة قطعة ذهبية » فرفض . وخاف غيرهم من منظره وصولته . ولما اقتربت قافلة الزائر المذكور من الدير « زأر الاسد ، فارتجفت الركائب وبالت الحمير والجمول رعباً ثم وقعت على الارض خاشعة . »

هذا وليس من الحق ان نضع تبعة التصديق السريع وسذاجة الاحكام على الزوّار اجمعين . فان منهم من اظهروا مقدرة على النقد كافية ، ولنا بملاحظات الزائرة سيلفية شواهد كافية . واكثرهم بل كلهم ، حتى الجماهير ، كانوا يطلبون المشاهدة ولا يصدّقون الا اذا رأوا دقائق الاشياء . ولكن من الحق ايضاً ان اهل البلاد أروهم كل شيء في محله حتى تجاوزوا حدود التقليد بل حدود المعقول احياناً . وليس من السهل ان يوقف الانسان هذا التيار الشعبي الذي يدفع بالغرباء من جهة الى الاطلاع على كل الآثار ، ومن جهة اخرى يدفع باهل البلاد الى اطلاع زوّارهم على كل ما يرغبون . ونحن اذا تحققنا في الاولين شيئاً من زيادة الثقة وسرعة التصديق ، فلا يمكننا ان نرى في الآخرين رغبة في الغش او ميلاً الى الخداع . لا هذا وذاك . بل هناك عقلية خاصة ترى من واجب الضيافة الشرقية ان لا تترك الزائر تحت تأثير سيّئ . فهي لا يمكنها ان لا تجمل الاجوبة موافقة لرغبة الضيف اذا ما اكثر التدقيق وعدّد الاسئلة عن هذا او ذاك من الامور القديمة . فانه ، ان يفعل ، فقد يرى اجوبة عن كل الشؤون وحلولاً لكل المشاكل . وقد تحققت الامر بنفسي مئات من المرات اثناء

وحلاتي في سورية . واكاد لا انتالك الآن عن ذكر اسماء السيّاح الانكليز والاميركان واسماء الزائرين البروتستانت من الذين توصلوا باستلتهم الدقيقة المتابعة وباستنطاقاتهم الغريبة ، الى ان استخرجوا من ارض فلسطين تقاليد جديدة وتذكارات مقدّسة لم يعرفها احد قبل مرورهم . وليس من النادر في مثل هذه المواقف ان يسرع الترجمان الى معونة الرجل المسؤول فيرتب الجواب حسب رغبة السائح السائل او الزائر الراغب في ان يرى الامر الفلاني في المكان الفلاني ، فيكون له ما شاء . وهذا امر يطول شرحه ، ويكون من افكه الابحاث ان نكتب فصلًا برمته عن الطريقة التي يشترك فيها السائح والمقيم في الشرق ، دون ان يقصدا بل دون ان يشعرا ، فيتفقان على اختراع التقاليد والمعلومات الجديدة . كما انه من المفكه ايضاً ان نذكر تأثير المترجمين في كل هذه الاختراعات ، وان عن غير قصد منهم . واني في كلامي عن الشرقيين اقصد خصوصاً سكان الداخلية ، ولاسيما سكان المناطق الغنية بالآثار التاريخية . واهم ما يشغل فكرهم ان يُحدثوا التأثير الحسن في عقلية الزائر الغريب ولا يهتمهم ان يدفعوه الى الوهم والخطأ فيغلط ويغلط من يأتي بعده من العلماء .

يلحّ عليك العطش ، في مسيرك بين الجبال والاودية الشرقية ، فتطلب من تصادفه فتسأله : هل في المنطقة ماء ؟ فيكون الجواب دائماً بالايجاب . حتى اذا سألت عن المسافة قيل : « شربة سيكارة او سيكارتين » فتمشي ، وتمشي ، وقد لا تجد الينبوع ، وقد تجده على مسافة عشرين كيلومترًا . واي اهمية لهذا الامر في جنب الطمأنينة التي انالك اياها من صادفته . واذا اتاح لك الحظ والتقيت به ثانية فجرّبت ان تدفعه الى الندم ، فانه يجيبك دون تردّد : « أوَ يكون عطشك اخفّ وطأة مما كان عليه لو عرفت الحقيقة ؟ » هذه الفلسفة الخاصة وهذا الاتساع المجاوز الحدّ في مدلول الضيافة وشروطها عملا دون شكّ على زيادة الآثار القديمة وعلى مضاعفة التقاليد المقدسة في فلسطين . وليس من العبث ان يسكن الانسان بلدًا مشهورًا غنيًا بالحوادث التاريخية . ومن اغرب هذه المظاهر ان الصليبيين انفسهم ، بعد ان اقاموا مدة في هذه البلاد ، تحوّلوا الى شرقيين فزادوا في اختراعات من تقدّمهم آثارًا قديمة ومنازل مقدسة في جميع

انجاه فلسطين ، وزادوا بذلك مهمة العلماء صعوبةً وعناءً . هذا هو السراب الشرقي بعينه وهو امر على العلماء المدققين ان يتنبهوا له قبل كل شيء اذا ما ارادوا تمحيص الحوادث الجارية تحت سماء الشرق المشتة البراقة !

***

بقي علينا ان نلقي نظرة على مظهر من مظاهر الشرق المهمة الا وهو مظهر الايمان المسيحي والوطنية الحقة الماثل ضمن اطار الحماية الفرنسوية . فاننا يمكن ان نميز فيه اربعة عصور مهمة : عصر شارلمان ، وعصر الصليبيين وعصر الامتيازات الاجنبية ، ثم عصر ازدهار الارساليات الدينية والعلمية والاخلاقية الموافق عصر تقدم المشاريع الاقتصادية في القرن الماضي . وفي هذا العصر الاخير انفقت فرنسة دون حساب من كنوز قلبها وجيبها ؛ وانه ليكفينا ان نذكر حملة سنة ١٨٦٠ ، واقرار القواعد لامتيازات لبنان التي كانت خير مقدمة لاستقلاله .

هذا في العهد القريب . اما في الزمن البعيد فان تدخلات شارلمان وما أدّت اليه من نتائج ادارية وسياسية لم تظهر بعد بالوضوح الكافي . والعجيب في ذلك ان جميع المصادر الشرقية تسكت سكوتاً تاماً عن هذه العلاقات . ولا يخفى انه لم ينتج عن هذه العلاقات شبه سيادة لشرلمان على الاراضي المقدسة ، ولا تنازلت له الخلافة عن الهياكل الفلسطينية . فان الامبراطورية العربية كانت اذ ذاك في ابان سطوتها تظهر سامية المجد بشخص هارون الرشيد ، ذاك الخليفة المكتنف بالابهة والعظمة الذي خلّدت ذكراه العجيبة في بلاد الغرب روايات « الف ليلة وليلة » . فلم يكن من المنتظر اذاً ان سياسة العرب القومية المتعصبة اذ ذاك تقبل بالتنازل ولو عن قطعة صغيرة من املاكها ، ولو عن جزء ضئيل من سلطتها لتحل محلّه سلطة اجنبية . على ان سياسة شارلمان الجلودة المرنة لم تتقهقر ولم تتراجع حتى نالت الاذن ببناء الكنائس والاديرة والملاجئ وبانشاء الاملاك والاوقاف اللازمة لاعالتها . ثم كان لشارلمان الحق بان يهتم بشؤون نصارى فلسطين ، وبان يرسل اليهم الاعانات . ولهذا فاننا نرى موظفين مخصوصين يعتنون بترتيب هذه الاعانات وتنظيم ارسالها . بينما كانت الحكومة

تفرض في بلاد غالية رسوماً خاصة لمؤونة الاراضي المقدسة . منذ ذلك الحين اخذت العلاقات بين بطاركة اورشليم وملوك الكارولنجيين تتعدد وتتنظم . وان من يعرف اية مراقبة شديدة كان يفرضها العباسيون على مراسلات الاساقفة الخارجية ، حتى انهم سجنوا احياناً بعض البطاركة لانهم كتبوا الى ملوك النصارى دون ان يطلعوا ادارة المراقبة على رسائلهم ، ان من يعرف هذا الامر لا يتردد في الحكم ان الخلفاء اقرّوا ، ضمنياً على الاقل ، هذه الحماية الغربية . وهذه هي الامتيازات نفسها ، مع شيء من التوسع في بعضها او من التضييق في بعضها الآخر ، التي نالها في ما بعد ، من اجل نصارى الشرق ، ملوك الفالوا والبوربون في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ان عزيمة الامبراطور الكبير وغيرته الحبية المثمرة عملتا على حفظ كيان المسيحيين في فلسطين . على ان ذلك لم يكن ليحدث لو لم يُهيأ الرأي العام من مدة طويلة حتى أثّر بدوره في السياسة الكارولنجية .

اما هذه التهيئة الطويلة البطيئة فكانت عمل الزوار والسيّاح الذين تكلمنا عنهم . لقد فهموا بشعورهم المسيحي ، اثناء اقامتهم في الشرق ، ما سيفرضه المستقبل ، وما ستكون واجبات بلادهم تجاه تلك الاراضي المقدسة . فعملوا على تعزيز العلاقات والمفاوضات الرسمية وجمعوا بين مصير سورية ومصير فرنسة . حتى تنتج عن هذا العمل الثقل المتمهل ان دُفع شارلمان الى التدخل سلمياً بشأن نصارى الشرق . فكان تدخله اول مرحلة لبعثة فرنسة التاريخية في سورية ، تلك البعثة التي تتابعت مراحلها في ما بعد . ومما يدلّ على اهميتها ان خيال الشعب الفرنسوي وخيال شعرائه في القرون الوسطى تضافرا على تجميل هذا العمل واحياء ذكراه ، فاقاما من الامبراطور زائراً تقياً ، ثم رفعاه الى مقام فاتح الاراضي المقدسة .